

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

"مشروع العدل والإحسان بين اجتهاد السلف وتجديد الخلف"

مقدمة:

إن القارئ لكتاب الله عز وجل والمتدبرة لآياته، والمستنبط لأحكامه، والعارف بأوامره ونواهيه، لا يمكنه أن يمر مروراً سريعاً على أمر جامع ومانع، صادر من رب العزة سبحانه وتعالى، وهو قوله عز وجل في سورة النحل "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"¹ هذا الأمر الإلهي تفنن في تفسيره، وتفصيله وتدبره، عدد كبير من أئمة السلف الصالح، ومن أبرزهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه، الذي وصف هذه الآية العظيمة بكونها "أجمع أية في القرآن"². هذا الوصف الصادر من صحابي جليل عالم بكتاب الله عز وجل، كما شهد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوصاف أخرى لصحابة آخرين أجلاء نحت منحى ما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه، جعلت من هذه الآية المباركة مشروعاً عظيماً متكاملًا، جامعاً ومانعاً لكل مسلم وسط هذه الأمة المباركة، ولهذا الأمة وسط الأمم الأخرى لتبوء الصدارة، واستحقاق الخيرية، وشرف الاستخلاف في الأرض، والعبودية لله عز وجل في هذه الدنيا. سوف نعيش إن شاء الله تعالى مع هذه الآية المباركة من ساعة نزولها على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتلقي الصحاب الكرام لها غضة طرية، وكيفية فهمهم لها، مروراً باجتهاد السلف المتقدمين منهم والمتأخرين في تدبرها وتدارسها والاستفادة منها علماً وعملاً رضي الله عنهم أجمعين، ووصولاً إلى زماننا هذا المبشر بالغبرة الآخرة، والخلافة الثانية، والأخوة الحانية، زمان الصبر الكثير، والجزاء الكبير، من للشوق فيه عبير يتنسمه كل مؤمن صادق عازم على إحياء السنة وإماتة البدعة، شوق وأي شوق! "وددنا لو رأينا إخواننا"³

فكيف ننهل من النبع النبوي الأصيل مروراً على اجتهاد السلف في الفهم والتحصيل، لكي ننسج على المنوال، مشروع العدل والإحسان كما فهمه الصحب والآل، نسجاً متيناً وورصيناً غير عنكبوتياً⁴ نسجاً فيه للمقاصد تحديد، وللفقه تحديد، وللري تسديد بعون القادر المجيد.

الباب الأول: العدل والإحسان عند السلف من المتقدمين والمتأخرين

إن لهذه الآية الكريمة والعظيمة قصة عجيبة مع سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع صحابته الكرام رضي الله عنهم، ابتداءً من ساعة نزولها ومروراً بمختلف مراحل النبوة الرحيمة، والخلافة الراشدة، وما جاء بعدها من أزمنة مختلفة. وسوف نعيش إن شاء الله تعالى تفاعل معظم هذه الأجيال والقرون مع هذه الآية الكريمة، منذ الزمن المبارك إلى يومنا هذا بإذن الله اجتهاداً في فهم النص وتطبيقه عند المتقدمين، وتجديداً لتنزيله في واقعنا المعاصر حسب الزمان والمكان.

- (سورة النحل، آية 90).¹

- (حديث بن مسعود)²

- حديث³

4 - (مصدقا لقوله تعالى في سورة العنكبوت)

الفصل الأول: العدل والإحسان في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول: مفاهيم ضرورية:

المطلب الأول: السلف

1- لغة: نجد في اللغة أن جميع تعاريف هذه الكلمة تدل على التقدم والسبق. قال ابن فارس: "سلف: سين ولام وفاء،

أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك السلف الذين مضوا، والقوم السلاف: المتقدمون".⁵

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم دالة على نفس معنى التقدم والسبق في الزمن، مثل قوله تعالى: "كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية"⁶ بمعنى: بما قدمتم في الدنيا.

وكذلك قال ابن منظور عند ذكره لقول الله تعالى: "فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين"⁷ أي قوما سابقين من جاء بعدهم.⁸

وقال القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي: "والسلف كل عمل صالح تقدم للعبد ومنه قوله في الدعاء للطفل الميت: اجعله لنا فرطا وسلفا، أي متقدما نجده في الآخرة. والسلف أيضا من تقدم من أبائك وقرابتك".⁹

2- اصطلاحا: يدور معناه حول معينين: السلفية الزمنية والمنهجية.

* السلفية الزمنية: هم من تقدموا في الزمان من الأمة الإسلامية.

وهناك من قال بأنهم الصحابة رضي الله عنهم الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدركوا الوحي فجمعوا بين الجانب النظري والتطبيقي. وقال بهذا القول عدد ممن شرحوا رسالة ابن أبي زيد القيرواني¹⁰ وقيل هم الصحابة والتابعون وبهذا قال أبو حامد

الغزالي: "واعلم أن الحق الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين"¹¹

ومنهم من زاد تابعي التابعين، وهو قول جمهور أهل العلم¹² وهو الراجح، وذلك لعدة أسباب:

أ- لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحهم ومدح القرون الثلاثة الأولى التي عاش فيها الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين، وشهد لهم بالخيرية كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم ويمينه ويمينه شهادته"¹³.

ب- هو قول جمهور أهل العلم كالإمام ابن تيمية والسفاريين والشوكاني والغزالي، وفي هذا قالوا رحمهم الله تعالى:

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "مذهب أهل الحديث وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف"¹⁴.

- (معجم مقاييس اللغة لابن فارس (95/3))⁵

- الحاققة⁶ 24

⁷ - الزخرف

- (ابن منظور. لسان العرب (33/6)).⁸

- (ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبي المالكي (432/4))⁹

¹⁰ - (أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، ومن مصنفاته القيمة كتاب الرسالة)

- (أبو حامد الغزالي، "إلجام العوام عن علم الكلام" ضمن مجموعة الرسائل للغزالي. ص (3))¹¹

- (وهو قول ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل. (134/7) والسفاريين في لوايح الأنوار البهية (20/1))¹²

- (صحيح البخاري. كتاب فضائل الصحابة (3650/7))¹³

- وقال الإمام السفاريني رحمه الله: " والمراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد لهم بالإمامة، وعرف عظم شأنهم في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف¹⁵.

- وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: " وبهذا الكلام القليل الذي ذكرنا نعرف أن مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين، وتابعيهم وهو: إيراد أدلة الصفات على ظاهرها دون تحريف لها ولا تأويل¹⁶

1- السلفية المنهجية:

بالرغم من أن هناك من حصر مفهوم السلف في القرون الثلاثة الأولى، إلا أن الصواب هو أن السلفية الزمنية ليست كافية لضبط هذا المفهوم، لأن فيه إجحافا وإنكارا لفضل من جاءوا بعد القرون الثلاثة، وهم الذين يحيون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يميتها الناس. وهم من يجدد الله تعالى بهم هذا الدين. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها¹⁷ وهم من مدحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبعتهم بالإخوان فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أن رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: " أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد"¹⁸

لذلك يقول الدكتور سعد خلوقة الشهري: "وعلى هذا فإن المقصود بالسلفية المنهجية، المنهج الذي كان عليه السلف من أهل القرون الثلاثة المفضلة من أتباع الكتاب والسنة. وفهمهما الفهم الصحيح النقي غير المشوب بشائبة البدع والهوى، وكلمت اقتدى بهم وسار على دربهم فهو على منهجهم، ويمكن أن يقال له: (سلفي) وأن يقول: أنا على مذهب السلف الصالح، أو يقول: هذا الذي أقول به قال به السلف الصالح"¹⁹.

ومن ألقاب السلف: أهل الحديث والآثار، وأهل السنة والجماعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "..... مذهب السلف أهل الحديث والسنة والجماعة"²⁰

المطلب الثاني: الخلف:

1- لغة: خلف فلانا خلفا: جاء بعده فصار مكانه، وكذا الخلف: العوض والبدل. -²¹

2- اصطلاحا: وعلى عكس ما شاع استعماله في التعريف الاصطلاحي للخلف، والذي يقصد به عند البعض مخالفة أهل السلف، فإن الخلف هو المتبع لمنهاج السلف الصالح الذي كان قبله وصولا إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما إن كان خارجا عن منهاج النبوي، فإنه خلف (بسكون اللام) وليس خلف (بفتح اللام) لأنه بدل وغير وأظهر ما ليس في الإسلام،

- (ابن تيمية. "الفتاوي" (355/6))¹⁴

- (السفاريني. "لوامع الأنوار البهية" (20/1))¹⁵

- (الشوكاني. "التحفة في مذاهب السلف" ص 7)¹⁶

- (سنن أبي داود (4291). وصححه السنخاوي في المقاصد الحسنة (149) وصححه الالباني (599))¹⁷

- (صحيح مسلم. كتاب الطهارة. باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل. (228/1))¹⁸

- (د سعد خلوقة الشهري. "رسالة ماجستير مقدمة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة" (ص 219))¹⁹.

- شيخ الإسلام ابن تيمية. "درء تعارض العقل والنقل" (203/1) ²⁰

- (المعجم الوسيط (250-446/1))²¹

ولا في منهجه وعقيدته، وذلك مصداقا لقول الله تعالى: " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا"²².

وفي هذا المعنى، يقول الشيخ العثيمين رحمه الله: " إعلم أن السلف قد يراد به المذهب، وهذا يشمل من أخذ بهذا المذهب إلى يوم القيامة، وليس له حد زمني، فكل من قال بما دل عليه الكتاب والسنة فهو من السلف، وعلى هذا فلا حد له. وأما الحد الزمني، فإن المراد بالسلف هم القرون الثلاثة

فضلة، الصحابة والتابعون وتابعوهم، فهؤلاء هم السلف ومن بعدهم فهم خلف²³ وهذا هو المقصود بالمقولة المشهورة: "خير سلف لخير خلف"

المطلب الثالث: العدل

1- معنى العدل لغة:

العدل خلاف الجور، وهو القصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، من عدل يعدل فهو عادل من عدول وعدل²⁴ معنى العدل اصطلاحا:

العدل هو: " أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه"²⁵

وهو أيضا: "عبرة عن الاستقامة على طريق الحق باجتنب كل ما هو محظور دينا"²⁶

وقيل فيه أيضا: " إستعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها من غير سرف، ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير"²⁷.

المطلب الرابع: الإحسان

1- معنى الإحسان لغة:

الإحسان ضد الإساءة، مصدر أحسن أي جاء بفعل حسن.²⁸

وقال الراغب الأصفهاني: " الحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، وذلك على ثلاثة أضرب:

" مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحس..."²⁹

2- معنى الإحسان اصطلاحا:

قال السعدي: "الإحسان نوعان:

- إحسان في عبادة الخالق: بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. وهو الجد في القيام بحقوق الله على وجه النصح، والتكميل لها.

- (سورة مريم: 59)²²

- (الشيخ ابن العثيمين. شرح ألفية ابن مالك (23/43))²³

- (ابن منظور "لسان العرب. (430-11) انظر أيضا "الصحاح في اللغة" (1760/5))²⁴

- (ابن حزم. "الأخلاق والسير" ص 81)²⁵

- (الجرجاني "التعريفات" ص 147).²⁶

- (الجاحظ "تهذيب الأخلاق" وهو منسوب له. ص 28).²⁷

- (العسكري "الفروق اللغوية" (193/1))²⁸

- (الأصفهاني. " المفردات في غريب القرآن". (ص 118-119))²⁹

- إحسان في حقوق الخلق ... وهو بذل جميع المنافع من أي نوع كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسن إليهم، وحققهم ومقامهم، وبحسب الإحسان وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه والسبب الداعي له إلى ذلك.³⁰

المبحث الثاني: أسباب النزول وأقوال كبار المفسرين

المطلب الأول: أسباب النزول

إن هذه الآية الكريمة قصة عجيبة في سبب نزولها، يذكرها لنا الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: "أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، قال: حدثنا شعيب بن محمد البَيْهَقِي، قال: أخبرنا مكِّي بن عبدان، قال: أخبرنا أبو الأزهر، قال: حدثنا رُوح بن عُبادة عن عبد الحميد بن بهرام، قال: حدثنا شَهْر بن حَوْشَب، قال: حدثنا عبد الله بن عباس، قال:

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته بمكة جالساً، إذ مر به عثمان بن مَظْعُون، فَكَشَرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: ألا تجلس؟ فقال: بلى. فجلس إليه مستقبلاً، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ بصره إلى السماء، فنظر ساعة وأخذ يَضَعُ بَصْرَهُ حتى وضع على يمينه في الأرض، ثم تَحَرَّفَ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ يُنْغِضُ رأسه كأنه يستشفقه ما يقال له، ثم شَخَصَ بصره إلى السماء كما شَخَصَ أول مرة، فَاتَّبَعَهُ بصره حتى توارى في السماء، وأقبل على عثمان كجلسته الأولى، فقال: يا محمد، فيما كنت أجالسك وآتيك، ما رأيتك تفعل فَعَلَتِكَ الغداة. قال: وما رأيتني فعلت؟ قال: رأيتك شَخَصَ بصرك إلى السماء، ثم وضعته حين وضعته على يمينك، فَتَحَرَّفْتَ إليه وتركتني، فأخذت تُنْغِضُ رأسك كأنك تستشفقه شيئاً يقال لك. قال: أَوْفَطِنْتُ إلى ذلك؟ قال عثمان: نعم. قال: أتاني رسول الله جبريلُ آنفاً وأنت جالس. [قال: رسول الله؟ قال: نعم] قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [قال عثمان]: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم.³¹

المطلب الثاني: أقوال المفسرين

قال ابن كثير في تفسيره "يجز تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان ... كما قال تعالى: "وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن صبرتم هو خير للصابرين"³² إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا من شرعية العدل والندب إلى الفضل"³³

وذكر القرطبي رحمه الله مسائل ستة في هذه الآية منها أسباب النزول وقصة ترتيبها في المصحف، وذكر كلاماً لبعض الصحابة والتابعين سوف نأتي على تبينه في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى، ومنه كلام النقاش رحمه الله: "يقال زكاة العدل الإحسان وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه"³⁴.

- (السعدي. "بجحة القلوب الأبرار" ص 204).³⁰

31 - (أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. أسباب النزول. (ص280))

32 - (سورة النحل 126)

33 - (الحافظ ابن كثير الدمشقي "تفسير القرآن العظيم". 4/595))

34 - (الإمام القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". (10/165)).

وعقب القرطبي رحمه الله على كلام عبد الله ابن عباس رضي الله عنه حينما قال بأن العدل هو "لا إله إلا الله" وأن الإحسان هو "أداء الفرائض". قال: "وأما قول ابن عباس إن صح، ففيه نظر. لأن الفرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل. وذلك هو العدل وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل" ³⁵

وزاد القرطبي رحمه الله في تفسيره الإحسان فقال: "وهو (أي الإحسان) في هذه الآية مراد بالمعنيين معا (المعنى الأول: المتعد بنفسه والذي هو التحسين والتكميل، والمعنى الثاني: المتعد بحرف جر وهو الإحسان إلى الآخرين) ... فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة

ومراعاتها بآدائها المصححة والمكاملة، ومراقبة الحق منها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ³⁶ وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه وثانيهما لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين" ³⁷ وقوله تعالى: "إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه" ^{38 39}. أما الإمام الطبري رحمه الله، فقد قال في تفسيره: "يقول تعالى ذكره: "إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف الإقرار بما أنعم علينا بنعمته، والشكر له على أفضاله، وتولي الحمد أهله ولذلك قال من قال: "العدل في هذا الموضوع شهادة أن لا إله إلا الله" ⁴⁰

الفصل الثاني: فهم السلف الصالح للعدل والإحسان

المبحث الأول: أقول السلف في آية العدل والإحسان

نرجع في هذا المبحث إلى أقوال بعض من أكابر السلف، بدءا بالصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، والتابعين، وتابعي التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وأغلب الأقوال مدونة في كتب التفسير المعتمدة. ذكر ابن كثير في تفسيره قول عبد الله بن مسعود في آية العدل والإحسان فقال: "قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله يأمر بالعدل" قال: "شهادة أن لا إله إلا الله" ⁴¹

وأضاف القرطبي في تفسيره: قال عبد الله ابن عباس: "العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض" ⁴². وذكر ابن كثير أيضا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: "قال الشعبي عن شتير بن شكل، سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل. "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" ⁴³

35 - (نفس المصدر. ص 166)

36 - (حديث جبريل)

37 - (سورة الشعراء: 218).

38 - (سورة يونس: 61).

39 - (الإمام القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". (10/167))

40 - (الإمام الطبري. "جامع البيان عن تأويل أي القرآن" (14/334))

41 - (الحافظ ابن كثير. "تفسير القرآن العظيم". (4/595))

42 - (الإمام القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". (10/165)) ⁴²

وزاد القرطبي في تفسيره قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه " هذه اجمع آية في القرآن لخير يمتثل ولشر يجتنب"⁴⁴ وذكر ابن كثير في تفسيره⁴⁵ حديث الإمام أحمد ابن حنبل⁴⁶ الذي روى فيه سبب نزول هذه الآية، والذي قال فيه عثمان بن مظعون رضي عنه " ما أسلمت ابتداء إلا حياء من رسول الله **صلى الله عليه وسلم** حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي"⁴⁷

وذكر القرطبي أيضا في تفسيره أن عثمان بن مظعون لما حضر نزول الوحي بهذه الآية على رسول الله **صلى الله عليه وسلم** أخبر بها عليا بن أبي طالب رضي الله عنه، فتعجب فقال: " يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق"⁴⁸. وذكر أيضا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه الآية: "العدل الإنصاف والإحسان التفضل"⁴⁹ وقال سعيد عن قتادة قوله: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهي الله عنه وقدم فيه، وإنما نهي عن سفاسف الأخلاق ومذامها.⁵⁰

قال سفيان بن عيينة: "العدل ها هنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية"⁵¹ قال ابن عطية القرطبي: "العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان."⁵² وحكى النقاش قال: يقال: زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه.⁵³

وذكر القرطبي في تفسيره أيضا قصة في هذا الشأن قال: " روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجها العامل وغلبها بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور في شيء، فقام فتى من القوم فقال: " يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن". قال فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل"⁵⁴

المبحث الثاني: أقول السلف في العدل أو في الإحسان أو فيهما معا

-⁴³ (الحافظ ابن كثير. " تفسير القرآن العظيم". (596/4))

44 - (الإمام القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. (ج 10. ص 165))

45 - (الحافظ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. (ج 4. ص 595))

46 - (الإمام أحمد ابن حنبل المسند (ج 1. ص 318))

47 - (الإمام القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. (ج 10. ص 165))

48 - (الإمام القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن" (10 / 165))

49 - (أبو نعيم "خلية الأولياء" (7/291)).

- (الحافظ ابن كثير. "تفسير القرآن العظيم". (4 / 596)⁵⁰

- (الإمام القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". (10 / 165))⁵¹

52 - (نفس المصدر)

53 - (نفس المصدر)

- (نفس المصدر. (ص 168))⁵⁴

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول لتحيا القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئا فلينفع به.

إن للعدل أمارات وتباشير، فأما الآمرات فالحياء والسخاء، والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر بابا، ويسر لكل باب مفتاحا، فباب العدل الاعتبار، مفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت، والاستعداد بتقديم الأموال. والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق، والاكتفاء بما يكفيه

من الكفاف، فإن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء...⁵⁵

وقال ربي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس لما سأله: ما جاء بكم؟ فقال: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبي قاتلناه حتى نفىء إلى موعود الله...."⁵⁶

قال ميمون بن مهران رحمه الله: "سمعت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: "لو أقمت فيكم خمسين عاما ما استكملت فيكم العدل، إني لأريد الأمر وأخاف أن لا تحمله قلوبكم، فأخرج معه طمعا في الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا"⁵⁷

وخطب سعيد بن سويد رحمه الله بجمص، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق، فحائط الإسلام الحق، وبابه العدل، ولا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل"⁵⁸

وقال ابن حزم رحمه الله: "أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره"⁵⁹

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة."⁶⁰

وقال أيضا رحمه الله: "وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة. وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة"⁶¹

وقال ابن القيم رحمه الله: "ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزاءها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علما بمقاصدها، ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها لم

- (الطبري). "تاريخ الرسل والملوك". (485/3). ابن كثير "البداية والنهاية" (43/7)⁵⁵

- (الطبري). "تاريخ الرسل والملوك". (520/3). ابن كثير "البداية والنهاية" (39/7)⁵⁶

- (ابن عساکر "تاريخ دمشق". (181/45). الذهبي. "تاريخ الإسلام" (197/7)⁵⁷

- (ابن عبد ربه. "العقد الفريد" (27/1)⁵⁸

- ابن حزم. "الأخلاق والسير" (ص 90)⁵⁹

- (ابن تيمية. "مجموع الفتاوى" (146-28)⁶⁰

61 - (نفس المصدر)

يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة. فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة علمها من علمها، وجهلها من جهلها" ⁶²

وقال أيضا رحمه الله: "فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق، ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال" ⁶³
وزاد رحمه الله في كتابه مدرج السالكين فقال: "ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإحسان، وهي لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ها هنا فهو من الإحسان" ⁶⁴

وقال رحمه الله في موضع آخر: "مفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده" ⁶⁵

المبحث الثالث: مشروع العدل والإحسان عند السلف الصالح

إن ما ذكرناه سالفا من مقولات وتأويلات وتفسيرات لهذه الآية المباركة تعود إلى كبار أئمة سلفنا الصالح، هي بمثابة فهم واستنباط من بعد تذوق وتدبر وتفكر في هذه الآية الجامعة. ولا شك أن تأثير المحيط الاجتماعي والسياسي كان له الأثر الواضح في هذه الاستنتاجات.

غرضنا في هذا المبحث أن نرى كيف استنبط سلفنا الصالح من هذه الآية مشروعا متكاملا ومتوازنا، وكيف جعلوا من هذا المشروع نمط حياة وسلوك في هذه الدنيا في جميع الميادين ينتج حصادا وثمارا في الدار الآخرة.

منذ خمسة عشرة قرنا، أمر الله تعالى رسوله صلی الله علیه وسلم ومن خلاله أمته بالعدل والإحسان، فطبقوا أمر الله تعالى مع اختلاف في نوعية هذا التطبيق في الفروع دون الأصول. ولا شك في أن أحسن وأكمل تطبيق كان في عهده صلی الله علیه وسلم وفي عهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم. فهو الذي قال: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ" ⁶⁶ ولذلك، فسوف نرى كيف تم تطبيق مشروع العدل والإحسان خلال فترة الخلافة على منهاج النبوة، وأيضا خلال فترة الملك العاض والجبري كما أخبر بذلك رسول الله صلی الله علیه وسلم

روى الإمام أحمد واللفظ له، والبخاري بإتم منه، والطبراني ببعضه في الأوسط، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات. روى أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "كنا قعودا في المسجد وكان بشير رجلا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة. فقال: "يا أبا بشير بن سعد. أتخفظ حديث رسول الله صلی الله علیه وسلم في الأمراء؟ فقال له حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة، فقال أبو حذيفة، فذكره مرفوعا:

يقول رسول الله صلی الله علیه وسلم: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله، ثم يرفعها إذا شاء إن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن

- (ابن القيم. "الطرق الحكمية" ص 5) ⁶²

- (ابن القيم. "طريق المهجرتين" ص 460) ⁶³

- (ابن القيم. "مدارج السالكين" (319/3)) ⁶⁴

- (ابن القيم. "حادي الأرواح" (ص 66)) ⁶⁵

- صححه الترميذي في سننه (رقم 2676) وابن البر في جامع بيان العلم وفضله (1164/2) والحاكم في المستدرک ⁶⁶

يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت" 67

ثم إن هذه الفترة، أي فترة الخلافة على منهاج النبوة، والتي كان فيها مشروع العدل والإحسان مطبقا في أسمى صورته ومعانيه، لم تدم طويلا، فقد استمرت لثلاثين سنة فقط كما أخبرنا بذلك

رسول الله ﷺ في حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ الذي قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك"، قال سفينة: أمسك: خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثني عشر سنة، وخلافة علي ست سنين" 68.

لذلك، فإن تجربة الأمة بخصوص مشروع العدل والإحسان في أوج عطاءها، وتركيزه على رسول الله ﷺ لم تدم إلا ثلاثين سنة، ثم تحول الحكم من خلافة إلى ملك عضوض، ولما تستكمل الأمة بعد كمال فهمها لأمر الله الجامع في جميع جوانبه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فطيلة هذه الفترة الذهبية، فترة الخلافة على منهاج النبوة، بدا لنا جليا من خلال السيرة المباركة للخلفاء الراشدين، وأقوالهم التي ذكرناها آنفا في المبحث الأول من هذا الفصل، وأقوال الصحابة والتابعين الذين ركوا أعمالهم، أن فهمهم لمشروع العدل والإحسان كان فهما كاملا وشاملا ومتكاملا، كيف لا، وقد أخذوه مباشرة عن رسول الله ﷺ. فكان إذن هذا المشروع بشقيه العدلي والإحساني كافيا للنهوض بهذه الأمة وتبويتها مركز الريادة والصدارة بين الأمم تربية وتنظيما وزحفا نحو الفوز في الدنيا والآخرة.

إن الشق العدلي في هذا المشروع ظاهر ظهور الشمس في واضحة النهار، لأن الخلفاء الراشدين جسدوا العدل تجسيدا راقيا وجامعا، بحيث شمل جميع مظاهر الحياة في فترة حكمهم إبان الخلافة على منهاج النبوة وخصوصا خلال فترة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، ولقد دل على هذا أمور كثيرة منها:

- شهادة رب العزة سبحانه وتعالى فيهم حين قال عز وجل: "محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود." 69

- شهادة رسول الله ﷺ فيهم وهو الذي قال: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشد هم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعملهم بالحلل والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" 70

- خطبهم التي دشنوا بها خلافتهم لرسول الله ﷺ ونهجهم الذي ساروا به بين الناس، فوافق قولهم أفعالهم، ومنها قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: "أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع

- الإمام حنبل. مسند الإمام أحمد (273/4) ورواه الطيالسي والبيهقي في منهاج النبوة، وصححه الالباني 67

68 - الإمام أحمد بن حنبل. (220/5) (21969) وقال الأرنؤوط إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح

- سورة الفتح (29) 69

- صححه الزرقاني في مختصر المقاصد. ص 83. والالباني في صحيح ابن ماجه وصحيح الجامع. 70

الفاحشة في قوم قط إلا عمهم بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"⁷¹.

وكذلك قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند تولية الخلافة: "يا أيها الناس إني علمت أنكم تؤنسون مني شدة وغلظة، وذلك أي كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت عبده وخدامه، وكما قال تعالى: "بالمؤمنين رؤوف رحيم"⁷² وأنا رؤوف بالمؤمنين، قوي على الظالمين والمعتدين، فكنت بين يديه كالسيف المسلول، إلا أن يغمديني أو ينهاني عن أمر فأكفه،... فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله، وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد، ثم قمت ذلك المقام مع أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.... واعلموا أن شدتي التي كنتم ترون ازدادت أضعافا إذا صار الأمر إلي على الظالم والمعتدي، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قوبهم، وإن بعد شدتي تلك واضع خذي بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم..... واتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاي الله من أمركم"⁷³

وكذلك فعل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين في فترة خلافتهم قبل انقضاء السنوات الثلاثين، وتنازل لمعاوية بن أبي سفيان وبداية فترة الملك العاض كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معاوية يقول: "أنا أول الملوك"⁷⁴

لقد كان الإمام الخليفة في عهد الخلافة الراشدة، كما رأينا في النصوص السالفة الذكر، جامعا لمشروع العدل المتجسد في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإعطاء الحقوق لأصحابها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وقبول النصيحة، فكان الإمام الخليفة بذلك خليفة حقا لله عز وجل في أرضه، ضامنا لحقوق عباده. وكان الإمام الخليفة أيضا حاملا للمشروع الاحساني، فقد كان يؤم الناس في الصلاة ويعلمهم دينهم، ويربيهم على الرقي في مدارج الدين من إسلام وإيمان وإحسان، ويحج بهم أو يستنيب من يفعل ذلك إن حال بينه وبين ذلك عذر قاهر.

فمشروع العدل أيام الخلافة كان يضمن للناس حقوقهم، ويفرش الورود في طريق تحقيق المشروع الإحساني، فكانت التوبة والأوبة الجماعية والتعاون على البر والتقوى متجسدة في أسمى وأجلى صورته.

لكن، بعد انقضاء الخلافة وتحولها إلى ملك عاض، بدأ هذا الجمع ينتقض ويتفكك ويتحلل حتى أصبحنا نسمع عند ملوك بني أمية الذين كانوا هم أول الملوك خطب مثل هذه عوض التي كنا نسمع عند الخلفاء الراشدين. ففي سنة 75هـ، وعلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الملك الأموي عبد الملك بن مروان خطيبا فقال: "إني لن أداوي أمراض هذه الأمة بغير السيف، والله، لا يأمرني أحد بعد مقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه"⁷⁵

- ابن هشام: السيرة النبوية (ص 71)

- سورة التوبة (128)⁷²

- كنز العمال: 681/5-683، رواه الحاكم مختصرا (121/1).⁷³

⁷⁴ - (ابن عبد البر. "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" (ص 631))

- (ابن الأثير. (4/104-41) كما نقله المودودي في "الخلافة والملك" ص 106).⁷⁵

قال الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله: " من أولئك الذين يطلبون المعونة على الاستقامة وتقويم الاعوجاج إلى ملك حلیم لا يستفزه "السلام عليكم أيها الأجير" (كناية عن أمير المؤمنين الذي هو أجير وخادم الأمة) إلى ما تسمع! ولا حول ولا قوة إلا بالله⁷⁶.

كان هذا التحول من خلافة إلى ملك سببا في انقسام مشروع العدل والإحسان، فهرب أهل الإحسان بإحسانهم وانزوا كل في مكانه، وتخصصوا في التزكية والسلوك إذ لم يعد المرابي هو الحاكم، وهرب أهل كل تخصص بتخصصهم، واكتفى الملوك والأمراء بالمحافظة على حكمهم وقوتهم وأصبحت الأمة يتيمة لا أب لها إلا ما أكرمها الله به من علماء ربانيين ورثة لرسول رب العالمين

الباب الثاني: تجديد الخلف "مشروع العدل والإحسان"

الفصل الأول: مشروع العدل والإحسان عند الخلف: نماذج يشهد لها التاريخ

لا يخلو زمان من خلف مبارك وفالح لسلف صالح، حتى وإن غابت الخلافة الأولى على منهاج النبوة قرونا طويلة لأن بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعودة الخلافة الثانية على منهاج النبوة⁷⁷ وبشارة إخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقامها العظيم⁷⁸ جعلت أعدادا هائلة من المؤمنين الصادقين، والعلماء العاملين والأئمة المحسنين يتطلعون لهذا الخير العظيم. وسوف نبدأ بحول الله وقوته بأول نموذج من الخلف الصالح سعى لشمول الأمة ونبذ الاختلاف، وإعادة الخلافة الثانية الموعودة على منهاج النبوة.

إنه أول المجديين، الأمير الصالح والخليفة الخامس كما يسميه عدد كبير من علماء المسلمين: عمر بن عبد العزيز.

المبحث الأول: عمر بن عبد العزيز

لا يسعنا المجال هنا لذكر سيرته العطرة وكيف تاب إلى الله عز وجل تلك التوبة العمرية التي حولته من عالم الترف والملك العاض إلى عالم الذكر والحضور مع رب العزة عز وجل مع بداية خلافته، ونقول خلافة لا ملكا لأسباب كثيرة منها:

1- أنه كان يخاف من هذا المنصب ولم يطلبه أبدا كسائر بني أمية، ومنه ما روى الإمام ابن الجوزي من قوله حينما أسند إليه الأمر قال: " إن لله وإنا إليه راجعون حين صار إلي لكراهيتي له"⁷⁹

2- حاله عند إعلامه بذلك، وبقى مع ابن الجوزي حيث يقول: " فقالوا أين عمر بن عبد العزيز؟ فطلبوه، فإذا هو في مؤخرة المسجد، فأتوه، فسلموا عليه بالخلافة، فعقر به (أي طال حبسه)، فلم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعه، فدنا به إلى المنبر فلم يقدر على الصعود حتى أصعدوه، فأجلسوه، فجلس طويلا لا يتكلم، ثم بايعوه"⁸⁰

3- أنه رد توصية سليمان بن عبد الملك له بالحكم، وتحلل منها ورد الأمر إلى الأمة الذين أعادوا اختياره وبيعته، لكي تكون خلافة على شورى لا على تعيين، وفي هذا قال ابن الجوزي رحمه الله: "فصعد المنبر، أي عمر بن عبد العزيز واجتمع إليه الناس فقال: "أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبه له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد

76 - (الإمام عبد السلام ياسين. "العدل: الإسلاميون والحكم" ص 86).

- (انظر تخريج الأحاديث فيما سبق)⁷⁷

78 - (انظر تخريج الأحاديث فيما سبق)

79 - (ابن الجوزي. "عمر بن عبد العزيز: الخليفة الزاهد. ص 81)

80 - (نفس المصدر. ص 83)

خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختراروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، قل، أمرنا باليمن والبركة، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعا حمد الله وأثنى عليه، وصل على النبي صلى الله وقال: "أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء. وليس من تقوى الله عز وجل خلف. واعملوا لآخرتكم فإنه من عمل لآخرتهم كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنيا، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم. وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آباءه - فيما بينه وبين آدم عليه السلام - آبا حيا، لمعرق له في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربحها عز وجل، ولا في نبيها صلى الله ولا في كتابها وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحدا باطلا، ولا أمتع أحدا حقا، ثم رفع صوته حتى اسمع الناس فقال: "يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم" 81

وقال فيه عمرو بن عبيد: "لقد أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ولا باستحقاق لها. ثم استحقها بالعدل حين أخذها" 82

لقد كانت هذه الخطبة الجامعة والمانعة إيذانا بلم شمل الأجزاء التي تناثرت وتباعدت من انكسار مشروع الخلافة الأولى، والذي هو مشروع العدل والإحسان. خطبة تباعدت كل البعد عن خطب ملوك بني أمية، وقاربت كل القرب خطب الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم أجمعين

4- أنه أحيا مشروع العدل في نفسه، وفي رعيته، فتخلى عن امتيازاته والتي كان يحظى بها ملوك بني أمية وأمر زوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بالتخلي عن مجوهراتها وذهبها، وتحول من قصر الملك إلى بيت متواضع، وأعاد الحقوق إلى أصحابها فاطمأنت الرعية وأصبحت مهياً لتلقي المشروع الاحساني.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فخرج (أي عمر بن عبد العزيز) من صلاة الظهر ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي: "ألا من كانت له مظلمة فليرفعها"، فجعل لا يدع شيئاً مما كان في يد سليمان وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة. 83

5- أنه أحيا مشروع الإحسان، والذي هو حق معرفة الله عز وجل وعبادته والسلوك إليه سبحانه وتعالى، فأصبح للأمة مصحوب رباني، ومربي عالم كما كان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين،

فوعظ الناس، وصلى بهم وخطب فيهم، وعلمهم الإيمان والتقوى وأرشدهم إلى طريق الهدى، وهياً لهم أسباب عبادة ربه عز وجل. قال ابن الجوزي في كتابه: "حدثنا أبو سعيد الفريابي قال: "قال أحمد بن حنبل: "إن الله تعالى يقيض للناس في كل مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله صلى الله الكذب فنظرنا، فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفي رأس المائة الشافعي" 84

6- أن انطلاق أمره كان توفيقاً الله عز وجل له للصحبة الصالحة. فكان من جملة من أثر فيه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خصوصاً الذين روى عنهم مثل أنس ابن مالك، وخاله عبد الله بن عمر، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وابن أبي سلمة،

81- (نفس المصدر. ص 84-85)

- (المسعودي. "مروج الذهب" (205/3)) 82

83 - (ابن الجوزي. "عمر بن عبد العزيز: الخليفة الزاهد. ص 86)

84 - (نفس المصدر. ص 93)

والسائب ابن أخت نمر⁸⁵ وكذلك مجموعة من كبار التابعين مثل سعيد بن المسيب، وعبد الله بن إبراهيم بن قارظ، وأبي بكر بن عبد الرحمن وغيرهم⁸⁶.

غير أن صحبته لرجاء بن حيوة أثرت فيه تأثيرا بالغا وعميقا، فالصحبة الصالحة هي دوما انطلاقة المجددين والعلماء الريانيين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "المرء على دين خليله فلينظم أحدكم من يخال".⁸⁷

7- سعيه لإقامة الخلافة وخصمه لمشروع العدل والإحسان:

وقد ثبت أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما تولى الخلافة وخطب الخطبة ختمها بقوله تعالى:

" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون"^{88 89}

وقال المسعودي في مروج الذهب: "وكان عمر في نهاية النسك والتواضع، فصرف عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وترك لعن علي عليه السلام على المنابر وجعل مكانه: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك غفور رحيم". وقيل بل جعل مكانه ذلك: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون". وقيل بل جعلهما جميعا، فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية".⁹⁰

وكذلك ما جاء في حديث النعمان بن بشير الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، والذي أسلفنا ذكره، والذي يخبرنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيكون بعده (حديث الأمراء: الخلافة على منهاج النبوة ثم الملك العاض، ثم الملك الجبري، ثم الخلافة على منهاج النبوة) وتتمته: "قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه فقلت له: "إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين - يعني عمر - بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز، فسر به وأعجبه"⁹¹

المبحث الثاني: صلاح الدين الأيوبي

لقد شكل صلاح الدين الأيوبي الكردي أملا آخر لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرون من الملك العاض، وبعد أن تقهقرت وضعفت في عهد الملوك العباسيين، وتعدد الإمارات والولايات التي تخدم مصالحها الخاصة.

ففي زماننا هذا، والأمة الإسلامية تعيش الضعف والذل والهوان أمام قوى الاستكبار التي تتحكم فيها ماديا ومعنويا، والقدس سليبية. في زمان الغربة الثانية كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم نعيش إحساس وشعور ما قبل ظهور عمر بن عبد العزيز، وما قبل ظهور صلاح الدين الأيوبي، فإن أحوج ما نحتاج إليه هو تدبر القرآن وتدبر صنع الله عز وجل في هذه الأمة، كيف كان وكيف يكون، واستقراء تاريخ الإسلام، ودراسته دراسة عميقة ومنهجية لكي نعرف من أين أوتيت الأمة؟ من أين دخلها الضعف والهوان؟ من أين اندست الجرثومة حتى تفرق أمر الله بالعدل والإحسان وحتى انفصل المشروع العدلي

85 - (نفس المصدر. ص 31-33)

86 - (نفس المصدر. ص 36-37)

- (أخرجه الإمام أحمد في المسند (8398/307/8))⁸⁷

88 - (سورة النحل: 90)

89 - (الزمخشري. "الكشاف" (629/2))

- (المسعودي. "مروج الذهب" (428/1))⁹⁰

91 - (رواه أيضا الطيالسي والبيهقي في منهاج النبوة، وصححه الألباني).

الاجتماعي والسياسي عن المشروع الاحساني الرباني السلوكي والتقربي إلى الله عز وجل على صعيد الفرد والجماعة. يقول الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله:

"إذا اعتبر إلى ذلك أصابع الرحمن التي تقلب قلوب عباده، وتذكر من أين خرج للإسلام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي حتى عز بهم بعد أن عزوا به يسلم أن انتظار المعجزة في زماننا أشبه بانتظارها قبيل ظهور صلاح الدين. كانت يومئذ الذرية وكان الناس يومئذ فتاتا إنسانيا خلفته فتنة الفاطميين، وكان العدو الإسلامي الغازي في أوج قوته واتحاده وتألبه. فلما أراد رب الحركة والسكون عز وجل أن يمن على عباده المستضعفين اليائسين ابتعت للأيوبي رجلا اسمه رمز خالد هو "قطب الدين" فجدد للأمر عقيدته. وصحب الأيوبي الأخيار والصالحين فصلح وصلح بهم الدين.⁹²

بفضل هذه الصحبة الصالحة والأصل الطيب والإرادة العلية استطاع صلاح الدين تحقيق ما لم

يستطع تحقيقه كبار قادة المسلمين، فصلاح الدين ابن نجم الدين أيوب ينحدر من أسرة كردية عريقة في حسبها ونسبها وشرفها. فقد قضى سنين طفولته الأولى في بعلبك واختلف إلى مكاتب التعليم ليتعلم منها القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، وبالإضافة إلى هذا تعلم من العلماء قواعد اللغة ومبادئ النحو كما يتعلم أولاد أمراء المساميين. يقول صاحب كتاب طبقات الشافعية: "وسمع صلاح الدين الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، وشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي وجماعته. واستطرد يقول: "وكان صلاح الدين فقيها يقال: إنه يحفظ القرآن الكريم. والتنبيه في الفقه أو الحماسة في الشعر"⁹³ وقال أيضا: "أما تعليمه الفروسية والرمي والولوع بالصيد، وتدريبه على الأعمال الحربية، فحدث عنها ولا حرج... وهذا ما أعانه إبان الحروب على قيادة الجند، والتصرف تصرفا حكيما منجيا"⁹⁴

وأما رصيده الإيماني وسلوكه الإحساني، والذي يعد أول أساس يقوم عليه تجديد المجددين، صاحبي مشروع العدل والإحسان فقد كان له فيه النصيب الأوفر. وصفه مرافقه القاضي بهاء الدين فقال: "وكان رحمه الله خاشع القلب، غزير الدمعة إذا سمع القرآن خشع قلبه ودمعت عيناه... وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضا للفلاسفة والمعطلة، ومن يعاند الشريعة وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله"⁹⁵

وقد تجلّى فهم صلاح الدين الواسع لأمر الله تعالى بالعدل والإحسان، وسعيه لتحقيق المشروع العدلي الإحساني، ونهجه سيرة الخلفاء الراشدين من قبله في أمور كثيرة منها:

1- خدمته للمشروع الإحساني التقربي إلى الله عز وجل على صعيد أفراد الأمة من عامة وجنود مقاتلين مؤمنين. يقول القاضي ابن شداد "كان إذا سمع أن العدو قد داهم المسلمين خر إلى الأرض ساجدا لله، داعيا بهذا الدعاء " إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاق إليك، والاعتصام بملكك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل.... " وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت

- (الإمام عبد السلام ياسين. "الإسلام غدا" ص 613-614))⁹²

93 - (د. عبد الله ناصح علوان. "صلاح الدين الأيوبي" ص 15-16))

94 - (نفس المصدر. ص 16)

95 - (نفس المصدر. ص 71)

اقرب للإجابة⁹⁶ ويعلق الدكتور عبد الله ناصح علوان قائلاً: "وهذا النهج الذي نَحجه صلاح الدين هو نهج الخلفاء من

قبله، حيث كانوا يأمرّون الأجناد بتقوى الله والجيش من الاحتراس للمعاصي، والأمة بالعمل بأحكام الإسلام"⁹⁷

2- لقد تجلّت خدمته للمشروع العدلي في مواقف متعددة خلال فترة حكمه نذكر منها ما قاله القاضي بهاء الدين: "وكان رحمه الله على جانب كبير من العدل والرحمة والرأفة ونصرة الضعيف على القوي.... وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً... فما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته وأعتنى بقصته"⁹⁸

وكان يقف مع خصومه أمام القاضي دون أن يجد حرجاً أو غضاضة في ذلك، كما وقع في قصته مع التاجر عمر الخلاطي حتى أظهر الله صدق صلاح الدين.⁹⁹

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره... "أنه أزال كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس" فألغى صلاح الدين هذا كله.¹⁰⁰

3- حظه الوافر من الله عز وجل واستصغار الدنيا في قلبه وحبه الجهاد في سبيل الله عز وجل. قال القاضي بهاء الدين وهو يصفه: "لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله وأهله وأولاده ووطنه، وسائر بلاده، وفتح من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة"¹⁰¹

إن أمثال هؤلاء القادة والرجال العظام هم من فهموا أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فاستصغروا الدنيا في قلوبهم وارتبطوا بالآخرة، وطمعوا في الجائزة العظمى وهي النظر إلا وجه الله تعالى.

إن هذه الخصال الحميدة هي التي استمطروا بها فضل الله ونصره فكانوا حماة للدين وعبادا لرب العالمين، يستمدون النصر والمدد من ربهم عز وجل ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة، لم يفرقوا بين العدل والإحسان، ولا بين السلطان والقرآن، ولا بين الدعوة والدولة، فقد كمل الفهم عندهم وكان حقاً عندهم أمراً واحداً من لدن رب العزة، ومشروعاً واضحاً يمشي في الأرض بالخير بين الناس.

إن أمثال هؤلاء الأمراء الصالحين والدعاة الربانيين هم من يستحقون أخوة رسول الله ﷺ ولقب "خير خلف لخير سلف". هؤلاء الذين كما كان يفعل صلاح الدين إذا تفقدوا معسكر جنودهم في جو الجهاد وفي سكون الليل نظروا إلى الخيمة التي أصحابها قائمون ولربهم ذاكرون فقالوا: "من هنا يأتي النصر" وإذا نظروا إلى الخيمة التي أصحابها نائمون قالوا: "من هنا تأتي الهزيمة".

إن الأمة الإسلامية منذ زوال الخلافة على منهاج النبوة وتحولها إلى ملك عاض ثم جبيري، عرفت ركوداً وسباتاً عميقاً، إلا ما كان من نهضات علمية وفتوحات إسلامية زينت ذلك الملك العاض والجبيري دون أن يرقى إلى سيرة الخلفاء الراشدين. ولكن

96 - (نفس المصدر. ص72)

97 - (نفس المصدر. ص72)

98 - (نفس المصدر. ص95)

99 - (نفس المصدر. ص95)

100 - (نفس المصدر. ص96)

101 - (نفس المصدر. ص96)

ومضات الأمل يرسلها رب العزة عز وجل من حين لآخر تخبرنا بأن وعد الله حق وبأن نصر الإسلام والمسلمين ممكن إن تحققت الشروط، وبأن موعوده عز وجل آت لا محالة، فكان رجال صالحون وأئمة أطهار توالوا على هذه الأمة المباركة يجددون الدين ويثبون العزم في عباد رب العاملين، منهم يوسف بن تاشفين مؤسس دولة الموحدين بالمغرب، ومحمد الفاتح فاتح القسطنطينية وغيرهم، والخير في أمة رسول الله صلی الله علیه وسلم إلى قيام الساعة.

يقول الإمام عبد السلام: "أبو بكر خليفة رسول الله صلی الله علیه وسلم. أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامل أمانته، ما لبث أن لبي داعي ربه وترك الأمة بخير. أما الفاروق عمر رمز العدل والإيمان القوي، عثمان المتبتل القائم الصائم، علي المجاهد المحسن، ابن عبد العزيز الأمير النائب الآيب إلى ربه المهاجر إليه، صلاح الدين رمز الإصلاح والمحرر لمقدسات البلاد، رموز وآيات الله المتكررة في الوجود، استهدفتها أيد مجرمة لضرب الإسلام في المسجد رباط القوة ومنبر الحق والعدل مع عمر، وفي كتاب الله مع ذي النورين، وفي روح الجهاد مع علي الإمام، وفي مبدأ التوبة النصوح مع ابن عبد العزيز، وفي شوكة الإسلام مع صلاح الدين الأيوبي"¹⁰²

الفصل الثاني: مشروع العدل والإحسان التغيير: الخلافة الثانية على منهاج النبوة

إن ما أسلفنا ذكره من خلافة راشدة وأصحابها الذين قاموا عليها رضي الله عنهم أجمعين، وما تلاها من انفصام بين هذين المطالبين العزيزين "مطلب العدل ومطلب الإحسان" حينما تحول الأمر من خلافة راشدة على منهاج النبوة إلى ملك عاض ثم جبيري، لحري بأن يترك لليأس منفذا وللإحباط مسلكا إلى نفوسنا، فلا تتقدم إلى الإمام لتزاحم صحبة الأولين بأخوة المتأخرين واجتهاد السلف بتجديد الخلف. غير أن الومضات المنيرة التي أنارت مراحل متعددة من تاريخ الأمة منذ سقوط الخلافة الأولى تجعلنا نطمع في تجديد ما جددته أو على الأقل حاول تجديده أمثال عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي ويوسف بن تاشفين ومحمد الفاتح وغيرهم. يعيننا على ذلك بشارات سيدنا رسول الله صلی الله علیه وسلم للخلف الصالح من هذه الأمة وهي التي تناقلت عبر الأجيال لتصلنا غضة طرية في روحها ومعناها ومنها:

- حديث البشارة بإخوان رسول الله صلی الله علیه وسلم واشتياقه لهم: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه وسلم أتى المقبرة فقال: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أن رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: "أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد"¹⁰³

- حديث مقام هؤلاء الإخوان وقدرهم عند الله عز وجل وعند حبيبه صلی الله علیه وسلم
روى الإمام أحمد من حديث أبي جمعة رضي الله عنه قال: "تغذينا مع رسول الله صلی الله علیه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله أحد خير منا؟ أسلمنا وجاهدنا معك، قال: نعم، قوم يكونون من بعدكم، يؤمنون بي ولم يروني"¹⁰⁴
وعن أبي هريرة أيضا رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أناسا من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله"¹⁰⁵

102 - - (الإمام عبد السلام ياسين. "مجلة الجماعة" 94/5)

- (رواه مسلم عن أبي هريرة. "صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل)¹⁰³

104 - (قال الشيخ الألباني: رواه الدارامي وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي)

- (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني)¹⁰⁵

- روى أبو داوود والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن كالقابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون مثل عملكم". قال أبو داوود رحمه الله: " وزادني غيره: قال يا رسول الله! أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم."¹⁰⁶

- حديث عودة الخلافة على منهاج النبوة المذكور آنفا مع زيادة مهمة للإمام الشاطبي في الموافقات: " ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي، ويلقى الإسلام بجرانه (أي يتمكن) في الأرض، يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلا صبه مدرار، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا إلا أخرجته."¹⁰⁷

- حديث انتشار الإسلام: أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدْرٍ ولا وَبَرٍ (أي سكان الحضر والبادية) إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعزٍّ عزيزٍ أو دُلٍّ ذليلٍ. إما يعزهم عز وجل فيجعلهم من أهلها أو يذلمهم فيدينون لها». ويروي الإمام أحمد رحمه الله الحديث من طريق آخر عن تميم الداري رضي الله عنه¹⁰⁸. وكذلك ما رواه الإمام مسلم وأبو داود والترمذي رحمهم الله عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها».¹⁰⁹

فهذه كلها أحاديث تحفز على السير على منوال السلف الصالحين الأطهار عسى أن نكون أولئك الخلف الأبرار الذين بشر بهم واشتاق إليهم المصطفى المختار، فاستحقوا مقام أخوته بما فيه من أسرار، أسرار خلافة ثانية على منهاج النبوة يرضى عنها ساكن السماء والأرض بالليل والنهار.

المبحث الأول: حال الأمة اليوم والضرورة إلى المنهاج النبوي:

لقد آل الأمر بأمتنا كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمة ضعيفة ينخرها الوهن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو داوود والإمام أحمد رحمهما الله بسند جيد عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل! وليُنزِعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليَقْدَفَنَّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت".

وإنه لا حل للأمة للخروج من هذه الفتنة إلا بالرجوع إلى فهم وتطبيق أمر الله عز وجل بالعدل والإحسان المؤدي إلى الخلافة الثانية الموعودة على المنهاج النبوي، فما هو هذا المنهاج النبوي الذي يصلنا بهذه البشارة؟

المطلب الأول: "المنهاج النبوي"

قال تعالى: " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"¹¹⁰

- حديث صحيح أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن حبان، وقال الترمذي: حديث حسن.¹⁰⁶

- (نقله الإمام الشاطبي "في الموافقات عن الحافظ البزار رحمهما الله) ¹⁰⁷

- (أخرجه الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود، وأيضا من طريق آخر عن تميم الداري رضي الله عنه)¹⁰⁸

- (أخرجه الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه. "كتاب الإيمان")¹⁰⁹

- (سورة المائدة: 48)¹¹⁰

يقول الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله: " قال ابن عباس رضي الله عنهما: " الشرعة ما ورد به القرآن والمنهاج ما وردت به السنة". أنزل الله الكتاب بالحق وبلسان عربي مبين. والشرع والشريعة والمنهاج في لغة العرب بمعنى الطريق".¹¹¹
وأضاف رحمه الله قائلا: "المسلمون بحاجة اليوم لاكتشاف المنهاج النبوي كي يسلكوا طريق الإيمان والجهاد إلى الغاية الإحسانية (الإحسان) التي تعني مصيرهم الفردي عند الله في الدار الآخرة، وإلى الغاية الاستخلافية التي ندبوا إليها ووعدوا بها متى سلكوا على المنهاج واستكملوا الشروط.¹¹²

كلمة منهاج هي على وزن مفعال فهو اسم آلة مثل مفتاح. هو مجهود يهدف إلى فهم النصوص وفق السياق أو الواقع، ويعطينا مفاتيح نظرية. المنهاج ليس إنتاجا فكريا ولا نشاطا ثقافيا لكنه خطة عمل تقرأ بعين حامل الرسالة الذي يحمل معه إلى جنب همه مع الله عز وجل (الإحسان) هم الأمة (العدل).

يقول الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله: " استيقظ واعلم أن المنهاج النبوي هو ذلك الصراط الذي تضع فيه قدميك على قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو الصراط المستقيم الذي يلحقك بالذين أنعم الله عليهم، وقص عليك في كتابه نعمته عليهم، وتفضيله إياهم، ونصره دعوتهم، ثم حسن لك رفقتهم. لا تحسب أن المنهاج النبوي الذي تحدثت لك عنه كل هذه الصفحات الطوال يكون منهاجا نبويا إن هو لم يجمعك على الله تعالى، ولم يستحثك للإقبال عليه عز وجل، ولم يوقظ همتك إليه¹¹³.

إن هذا المنهاج الذي يفهم أمر الله تعالى بالعدل والإحسان ليس له ارتباط نصي أو فكري فقط بالرعييل الأول، ولكن له أيضا ارتباط روحي بهم وسند قلبي متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتي على الناس زمان يغزو فقام (جماعة) من الناس. فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم. ثم يغزو فقام من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم. ثم يغزو فقام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم! فيفتح لهم " يقول الإمام عبد السلام ياسين: " في هذا الحديث يقترن الفتح ببركة صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوارثه الأجيال ببركة رؤية من رأى من رأى وصحب. إنه تسلسل صحبة عبر الأجيال، تسلسل تخلق بالاتباع، يتسلسل معه موعود الله لمن سار على المنهاج النبوي الذي أوله الصحبة، صحبة مؤمنين لهم اتصال بالله عز وجل عبودية، وبرسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعا ومحبة وأخذا عن السلف الصالح، بالتربية المتسلسلة"¹¹⁴

ويزيد احترامنا لسلفنا الصالح، واستفادتنا منهم كلما زدنا مع التبخر في علمهم، تخصيص الدعاء لهم كما قال تعالى: " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم"¹¹⁵.

- (الإمام عبد السلام ياسين. " المنهاج النبوي" ص 11) 111

- (نفس المصدر السابق. ص11) 112

- (الإمام عبد السلام ياسين. " المنهاج النبوي" ص 460) 113

- (الإمام عبد السلام ياسين. " المنهاج النبوي" ص 366-367) 114

115 - - (سورة الحشر: 10)

المنهاج النبوي يدرس التاريخ، ويشخص الواقع ويضع يده على الداء وينسج أهدافا ويقترح دواء وخطة عمل للفرد وللأمة، فهو مفتاح العدل والإحسان، وله خصائص مثل:

- الوضوح: فطريقه ورؤيته واضحتان.
 - الشمولية: رؤية شاملة ومتكاملة وليست تجزئية.
 - المستقبلية: رؤية بعيدة المدى.
 - الأصالة: أصالة الكتاب والسنة.
 - الإجرائية: رؤية مقرونة باقتراحات عملية.
- ولا يسع المكان هنا للتفصيل في هذه الخصائص المنهاجية.

المبحث الثاني: منطلقات أساسية ومفاهيم منهاجية في مشروع العدل والإحسان

إن المتدبر لكتاب الله عز وجل من أول سورة إلى آخرها، والباحث عن أوامره سبحانه وتعالى لا يمكنه أن يجد إلا أمرا واحدا جامعاً ومانعاً ومتضمناً لكل تلك الأوامر الإلهية الأخرى، وهو أمر الله بالعدل والإحسان، إذ أن كل أمر كيفما كان لا يخلو من أن يكون أمراً بالعدل في حقوق النفس أو الأهل أو المجتمع أو الأمة أو المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان وغير ذلك، وهو العدل الأسري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغيره. ¹¹⁶ وإن يكون أمراً بالإحسان في المعاملات والانجازات والعبادات التقريبية إلى الله تعالى، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إنها اجمع آيات في القرآن الكريم"

المطلب الأول: أمر الله بالعدل "المشروع العدلي"

إن هذا الأمر الإلهية بالعدل من لعباده من بني الإنسان واضح وجلي في كتاب الله عز وجل كله، وهو اشد وضوحاً وشمولية في قوله تعالى: " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... " ¹¹⁶

فالإنسان خليفة الله في أرضه ومسؤول أمامه على تطبيق شرعه والالتزام بقوانينه، وربنا العدل عز وجل حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً. وإقامة العدل في أسمى صورته لا يكون إلا في خلافة راشدة يرضى عنها ساكنة الأرض والسماء.

يقول الإمام عبد السلام ياسين: " يقول الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله: " يكون حملنا لشعار عظيم (العدل والإحسان)، وما يمكنه من برنامج واسع عريض مجرد ضوضاء وغوغاء إن فقدنا المطلب الإحساني أو اندثرت معانيه في قلوبنا، لا قدر الله. والعدل مبادرة إلى هموم الأمة بأمر أنزله الله فهو واجب على المحسنين، لا تسابقاً مع المتاجرين في سوق اليسار. العدل برنامجنا الواضح لتتحذ عليه جهود الصادقين وتلتف حوله جماهير الأمة. يكون عملنا اضطراباً عقيماً على وجه الأحداث، وعملاً غير صالح بمعيار القرآن، إن لم نحمل في قلوبنا وعقولنا نية العدل، وإن لم تمض عزائمنا وأعمالنا لتحقيق العدل : العدل في الحكم، والعدل في القسمة، بهما جاء شرع الله ربنا " ¹¹⁷.

من أسمى أعمال الجهاد إقامة العدل: "وهو الأمر الإلهي المكرر في القرآن، المقرّر بمداد الكرامة وإمداد الولاية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ¹ وهم الذين إذا حكموا حكموا بالعدل، وحكموا باجتهاد، وحكموا بصواب، وحكموا حكماً

- (سورة البقرة 30) ¹¹⁶

- (الإمام عبد السلام ياسين. "رسالة توجيهية معروضة على موقع الإمام") ¹¹⁷ www.yassine.net

يكفل لهم ولعامة الناس وخاصتهم، لديناهم وآخرتهم، حسنة الدنيا وهي الاستخلاف والتمكين، وحسنة الآخرة وهي سكنى دار النعيم والنظر إلى وجه الله الكريم¹¹⁸

ونجد أن تخل الإحسان بطرق متعددة في المشروع العدلي أمر ذو أهمية قصوى لأن بعضه يكمل بعض: "قال الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل، 90). يتبع الإحسان العدل كما تتبع النافلة الفرض. وتتبع صدقة التطوع الزكاة الواجبة، تكملها وتسد حواشي الحاجة. فإذا كفت الزكاة لإقامة العدل، وهو الحد الأدنى من قسمة الأرزاق، وإلا تأكد الإحسان، واقتربت درجة التطوع من درجة الإلزام.¹¹⁹

واجب الدولة إقامة العدل عن طريق القسمة العادلة، وهذه القسمة لها مكمل ومحسن، وهذا ما فصله الإمام رحمه الله في كلامه: "أما المكمل المحسن للقسمة فهو الإحسان بعد العدل، الذي يغطي مجال التحسينات. والإحسان لا تستطيع الدولة الوفاء به، لأنه من دقائق الأرفاق، يتعلق بدمم المؤمنين، ويكون للحممة المادية للولاية بين المسلمين. أمر الله عز وجل بالعدل والإحسان، ليسد الإحسان التطوعي ثغرات العدل الإلزامي. فإن الدولة لا تستطيع أن تزور المريض، وتواسي الحزين، وتخرج إلى إغاثة الملهوف، وحمل الكل، والإعانة على نوائب الحق. إنما يستطيع ذلك ذو القربى، والجار، والصديق، والشفيق¹²⁰

مقاصد الشريعة تحفظ بأمر الله تعالى كنه الإنسان ولبه وحقيقته و: "العدل أم المصالح التي يقصد إليها الشرع. هو صلب الدين، وحوله تُطيفُ همومُ المسلمين، وبه بعث الله الرسل والنبئين، مبشرين ومنذرين... والله عز وجل يريد لأولئك ومن هؤلاء عدلا شاملا في حقوق العباد الدنيوية ييسر لهم أمور آخرتهم. لا معنى للعدل الدنيوي إلا من كونه تيسيراً للمسافر يصون مسيرته إلى الدار الآخرة أن يفتنه عنها هم الرزق وظلم الناس."¹²¹

المطلب الثاني: المشروع الإحساني

لقد تفنن سلفنا الصالح وعلماؤنا الأجلاء كما رأينا في الباب الأول في تعريف الإحسان، فكانوا يدققون في معانيه، و يشيدون على مبانيه و يتطلعون إلى مقاماته التي هي مقامات الدين و إذا جمعنا ذلك كله وجدنا أن الإحسان جاء ليدل على معان ثلاث يكمل بعضها بعضا:

- الإحسان بمعنى فعل الخير : الإحسان إلى الناس، و هو البر
- الإحسان بمعنى الإتيان : مصداقا لحديث أمنا عائشة رضي الله عنها

" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن أتقنه " ¹²²

__الإحسان في عبادة الله عز و جل، بما هو أعلى مقام من مقامات الدين كما جاء في حديث جبريل الذي ذكرناه سالفًا. هذا الحديث هو عماد المشروع الإحساني، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " بينما نحن جلوس عند رسول الله

- (الإمام عبد السلام ياسين. " كتاب الإحسان " (109/2))¹¹⁸

- (الإمام عبد السلام ياسين. " في الاقتصاد " (ص51-52))¹¹⁹

- (الإمام عبد السلام ياسين. " العدل: الإسلاميون والحكم " (ص222))¹²⁰

- (الإمام عبد السلام ياسين. " كتاب الإحسان " (109/2))¹²¹

122 - (رواه مسلم و أصحاب السنن إلا ابن ماجة عن شداد بن أوس)

صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق. فلبثت ملياً (أي قليلاً) ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" 123

إن الأمر جلال، ولشدة عظمته وأهميته لم يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخبار الصحابة عن معنى الإحسان، ولكن استدعى الأمر نزول ملك كريم وروح أمين في صورة بشر، مبينا بطريقة تواصلية و تفاعلية رائعة هذا الأمر العظيم. عامة الناس في هذه الأمة من المسلمين، و لكن مرتبة الإسلام خليط من المؤمنين الصادقين، والعصاة و المنافقين وغيرهم. فلا يمكننا أن نخرج من الإسلام أحداً من أهل القبلة. ومرتبة الإيمان فيها المؤمنون الصادقون المستجيبون لأمر ربهم و الراغبون فيما عنده، ولكي يكمل إيمانهم يجب أن يستكملوا شعب الإيمان. أما المحسنون فهم خاصة الخاصة، هم الصديقون، أولياء الله الصالحون، العلماء العاملون بعلمهم الطامعون في النظر إلى وجه ربهم عز و جل.

و باب الرقي في هذا المعراج الروحي له شروط سماها الإمام عبد السلام ياسين: شروط التربية، و هي مجموعة في حديث حنظلة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي قال: وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما ذاك؟". قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده؛ إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات" 124.

- قوله صلى الله عليه وسلم: تكونون عندي: هي الصحبة الصالحة، و الصحبة تقويها الجماعة.

- قوله صلى الله عليه وسلم: و في الذكر: أي ذكرنا الذي يقوي إيماننا إذا غبنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- قوله صلى الله عليه وسلم: تدومون: و هي تفييد الصدق في الطلب

و من ركائز هذا المشروع الإحساني حديث الولاية :

123 - أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

124 - رواه مسلم عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

: - إن الله قال: " من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه "125

فهذا الحديث يضع أقدامنا على جادة مشروع كل واحد منا الإحساني الفردي مع ربه عز وجل لكي نطلق إليه محبة و عبادة بالفرض أولا، ثم بالنفل عسى أن يجبنا و يرفع قدرنا عنده.

و يختتم الإمام عبد السلام ياسين بكلام جامع في مشروع العدل و الإحسان، قال رحمه الله: " شرفنا أيها الإخوة والأخوات أن نجلس في أحضان التربية مع الذاكرين، قرييين إلى أرض التواضع، حيث البائس نواسيه وجريح البدن والقلب نأسو جراحه، قرييين من هموم المستضعفين لأن هذا القرب إلى الضعفاء يجلب رحمة الله، ونحن رحمته ورضاه وجنته ووجهه الكريم نطلب. تتمزق أوصالنا إن تعرضنا لأول صعوبة وليس معنا الإحسان. تفشل محاولتنا إن غاب العدل في برنامجنا، بل إن لم يكن العدل أول بند وأوسطه وأبرزه في برنامجنا. تتفكك عرانا في الدنيا والآخرة إن لم نحب هبة العباد الراجين عفو الله، السائرين إلى الله، في قلوبنا وعلى ألسنتنا وفي كراستنا برنامج العدل والإحسان"126

و قال أيضا رحمه الله: " كل ذهنية يجب عنها حاجب الكفر أو النفاق أو التقليد الأعمى حاكمية القرآن وهيمنته ونموذجية السنة الكاملة، سنة الجهاد والشورى والعدل والإحسان، دعوة ودولة، دنيا وأخرى، إنما هي ذهنية عاجزة عن فهم الإسلام وهو إسلام الوجه لله جل وعلا. بيننا وبينه، تعالى جد ربنا، كلمته المجيدة حملها إلينا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. فمتى لم نُقم وجهنا إلى كتاب الله تعالى صمودا إليه، واستماعا وطاعة، وتلقيا دائما، وتلاوة، وتدبرا، وذكرًا، فلن نكون المسلمين، لا ألتفت عن القرآن إن أنا استفتيت سنة ثابتة أو سألت عن فهم من سبقني بأثارة من علم، شريطة أن لا يشغلني المفسر عن التفسير، ولا رأي المفتي عن الحكم ولا الحكم عن الحاكم جلّ وعلا."127

125 - (رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه)

126 - (رسالة الإمام عبد السلام ياسين. " منشورة في الموقع الإلكتروني: www.yassine.net)

127 - (الإمام عبد السلام ياسين. " نظرات في الفقه و التاريخ " (ص 25))

خاتمة:

إن أمر الله للإنسان بالعدل و الإحسان هو تشريف قبل أن يكون تكليفاً، لأنه يشمل معان عظيمة و أسراراً كبيرة، فبالعدل ينال الإنسان شرف الاستخلاف في الأرض، و النياحة عن الحق في تطبيق شرعه، و في إحقاق الحق و إبطال الباطل، و السهر على العدل بين الخلائق. و بالإحسان ينال شرف التقرب إلى مولاه عز وجل و السلوك إليه بالفرض و النفل حتى يجبه. و بالإحسان ينال في هذه الدنيا شرف معرفته، و في الآخرة لذة النظر إلى وجهه الكريم.

إن أمر الله لعباده بالعدل و الإحسان هو دعوة إلى اكتشاف السر الذي أودعه الله فيك أيها الإنسان، و إلى الاصطفاء الذي خصك الله به إذ خلقك بيده، و نفخ فيك من روحه، و أسجد لك ملائكته، و وعدك بالخلود في جنانه و بصحبة سيد الخلق حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إن أمر الله هذا الجامع فهمه سلفنا الصالح، و بلغ أوجه في الخلافة الراشدة قبل أن يغيب مدة قرون من الزمن، اللهم ما كان من ومضات أمل في تاريخ الأمة. و اليوم، نحن مدعوون بصفتنا خلف ذلك السلف المبارك إلى تجديد المهمة، و اتباع المنهاج النبوي الذي يفتح لنا مغاليق الفهم لكي نطبقه كما أمرنا ربنا في أنفسنا و أمتنا؛ تى نفوز ببشارة أخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.